مجلة العلوم الإنسانية ——— عدد 19- جوان 2003، ص.ص. 111-130

نظرية الإنتاج عند ابن خلدون
(دراسة مقارنة)

ملخص

لقد كانت وما زالت نظرية الإنتاج تشكل جوهر الدراسات الاقتصادية، وابن خلدون من المفكرين الأوائل الذين تناولوا هدا الموضوع بالتحليل، وسنحاول من خلال هذا البحث تقديم مساهمة ابن خلدون وإثبات سبقه العلمي والتاريخي في مجال نظرية الإنتاج.

أ/ الطيب داودي
كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية
جامعة محمد خيضر، بسكرة

"إن الإنسان يفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من يوم خلقته إلى كهولته فكبره وموته، ويد الإنسان مبسوطة على هذا العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف في الأرض، وأيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصلت عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض، فالإنسان حتى لو اقتدر على نفسه وجاوز طور الضعف سعي في اقتناء المكاسب ليحقق ما أتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله إلا أنه حتى الزراعة لا بد له من سعيه معها" (1).

إن المتفحص في هذه الفكرة الخلدونية يستنتج إدراك ابن خلدون لمفهوم الإنتاج وأهدافه ومراحله فما طبع عليه الإنسان فهو افتقاره إلى ما يقوته أي تلبية حاجاته ورغباته عن طريق الإنتاج، ولا يقتصر الإنتاج عند مرحلة من مراحل حياة الإنسان بل يلازمه في كل مراحل حياته إلى أن يخرج من هذه الدنيا، وسنحاول أن نتطرق بشيء من التفصيل إلى هذا الجانب المهم من الفكر الاقتصادي ونبيّن كيف تناوله ابن خلدون في هذه المرحلة المتقدمة عن العصر الكلاسيكي في النقاط التالية:

Résumé

La théorie de la production constitue l'un des axes principaux des études économiques. Ibn Khaldoun est l'un des premiers penseurs qui a étudié ce sujet avec beaucoup d'intérêt et d'analyse.

Nous essayons, par cette étude, d'éclairer sa contribution et de démontrer l'importance de ses travaux autour de la théorie de la production.

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2003.

1- مفهوم الإنتاج وأهدافه عند ابن خلدون

سنتطرق إلى مفهوم الإنتاج وأهدافه عند ابن خلدون موضحين إسهاماته في هذا المجال ومبيّنين مكانة هذه الأفكار في نسقها التاريخي وذلك في الفروع الآتية:

1.1- مفهوم الإنتاج عند ابن خلدون.

تطرق ابن خلدون إلى مفهوم الإنتاج بمصطلحات عصره التي كانت متداولة فيما يخص مفهوم الإنتاج ومن أهمها المعاش والكسب وفي بعض الأحيان يأتي مصطلح العمل دالا عن العملية الإنتاجية في مفهومها الواسع.

وبالرغم من أن تباين طفيف بين هذه المصطلحات يوضحه ابن خلدون إلا أن المعنى العام يدل على مفهوم الإنتاج.

يقول ابن خلدون: "أعلم أن المعاش هو ابتغاء الرزق، والسعي في تحصيله، وهو مفعل من العيش، كأنه لما كان العيش هو الحياة لا يحصل إلا بهذه، جعلت موضعا له على طريق المبالغة"(2).

وإذا تأملنا هذه العبارة الخلدونية نجده يضع مجموعة من الخصائص لمفهوم الإنتاج كابتغاء الرزق، والسعي لتحصيله ثم مفعل من العيش، وأنه قرين الحياة، فلا تستقيم ولا تهنأ وتستمر إلا بالإنتاج.

وسنحاول أن نتعرض بشيء من التفصيل لهذه الخصائص التي عرّف بها ابن خلدون مفهوم الإنتاج فيما يلي:

أ- الإنتاج هو ابتغاء الرزق

الكثير من الناس يعبر عن ابتغاء الشيء أي الرغبة في الحصول عليه بقولهم أنهم في حاجة إلى الغذاء أو الماء أو النوم أو المسكن وما عدا ذلك فليست بحاجات، غير أنه من الوجهة الاقتصادية أن كل ابتغاء أو ما سمي رغبة من رغبات الإنسان تعبر عن حاجة معينة مهما صغرت أهميتها، ويبقى الإنسان متعلقا بأمل تحقيقها لاعتقاده بأنها تمكنه من العيش بهناء ورخاء.

إن كل حاجة يريدها الإنسان تولد عنده رغبة وابتغاء للحصول عليها، وهذه الرغبة توجه نشاطه أو المجهود اللازم الذي يدفعه ويقوي إرادته لتحقيق هذه الرغبة.

وإذا كانت حاجة الإنسان هي العامل الأساسي فإن هذه الحاجة لا تتكون إلا إذا رغب فيها الإنسان.

فالرغبة هي التي تدفع الإنسان إلى إنتاج ما يحتاج إليه من ضروريات حياته، والإنتاج في مفهوم ابن خلدون هو أولا نتيجة لرغبة الإنسان الطبيعية في الحصول على حاجات معينة، وهذا الابتغاء هو المحرك الذي يدفع الإنسان للقيام بما يلزم لانتاج ما يبتغيه، ومن أهم ما يدفع الإنسان إلى الإنتاج هو حاجته إلى الغذاء، وهذه الحاجة هي التي جعلت هذا الإنسان يخترع هذا الكم الهائل من الوسائل التي تضاعف وتضمن له ما يكفيه من غذاء وما يتبع هذا الغذاء من مسكن وملبس.

وهكذا يتبيّن بأن ابن خلدون تفطن قبل الكثير من رواد الفكر الاقتصادي الحديث إلى

أهمية الرغبة التي تسبق أي عملية إنتاجية سواء كبرت أو صغرت.

ب- السعي في تحصيل الإنتاج

إن مجرد الرغبة أو الطلب في رأي ابن خلدون لا يمكن أن يعتبر إنتاجا، فلا بد من مصاحبة حركة أو فعل لتجسيده، وهذه الحركة أو الفعل لا يتم إلا بالسعي، أي بالكد والنشاط وهذا النشاط والحركة هي في نظر ابن خلدون تجسيدا لتلك الرغبة التي سبقت، حيث يتدخل العقل واليدين لتشكيل محيط يساعد على إنتاج ما رغب فيه الإنسان، وعندما تتحقق تلك الرغبة أو الابتغاء عن طريق السعي والحركة يسمى هذا الفعل بالإنتاج وتسمى نتيجته بالمنتوج أو السلعة التي تحقق وتشبع تلك الرغبة السابقة التي دفعت الجسم والعقل إلى تجسيدها في الواقع.

وهذا ما يدل بكل موضوعية اقتصادية على عمق التفكير الاقتصادي لدى ابن خلدون الذي شكل له سبقا تاريخيا هاما.

ذلك لأن علماء الاقتصاد الحديث لم يدرسوا حاجات الإنسان درسا دقيقا إلا في القرن التاسع عشر في تعاليم فوريه Fourier وقد خصص لها المفكر طارد Tarde كتابه المعروف باسم La Psychologie Economique(3)

ج- **الإنتاج مفعل من العيش**

ويقصد ابن خلدون بهذه العبارة أن أي حركة أو سعي لتحقيق حاجات العيش هو مشتق من الإنتاج، فكل الأعمال التي قامت بها البشرية منذ وجودها، وكل الأعمال التي تقوم بها في الحاضر وكل ما سيقوم بإنتاجه في المستقبل على اختلافها وتنوعها وقربها من السحر والمستحيل هي كلها موجهة إلى تلبية حاجات الإنسان التي لا تكاد تنتهي ولا تستقر على حال، وفي هذا الإطار يعبر ابن خلدون عن هذه الحالة قائلا: "كأنه لما كان العيش، هو الحياة، لا يحصل إلا بهذه جعلت له موضعا على طريق المبالغة"(4).

إذن فإن مفهوم الإنتاج عند ابن خلدون هو السعي والحركة التي تبذل من أجل تحقيق الرغبات الإنسانية التي تؤدي إلى إشباع الحاجات الإنسانية المتنامية والمتزايدة، وهو الأساس الذي ترتكز عليه الحياة البشرية، لأنه يمثل المصدر الأساسي لعملية الإشباع سواء كانت الحاجات المطلوبة طبيعية أو معنوية.

وهكذا يتبيّن بكل وضوح عمق مفهوم ابن خلدون للعملية الإنتاجية، حيث ربطها اقتصاديا سابقا بكل ما توصل إليه فيها بعد جهود الاقتصاديين في العصر الحديث.

ومما يسجل لابن خلدون في سبقه التاريخي أنه لم يقف بالإنتاج عند مفهومه المادي مثل ما كان سائدا في الفكر الاقتصادي، والذي ظل قائما حتى أواخر المدرسة الكلاسيكية، بل كان مفهومه للإنتاج يشمل الجانب المادي: السلع المختلفة والجانب غير المادي "الخدمات"، فهو ينظر إلى العملية الإنتاجية على أنها ذلك الفعل والحركة التي تكون نتيجتها إيجاد منفعة لم تكن موجودة أو إضافة منفعة أو تعظيمها، يستوي في ذلك عمل الصانع والتاجر والطبيب والقاضي، وقد تعرف ابن خلدون في سابقة عن أنواع المنافع الزمانية منها والمكانية والشكلية وغيرها مما لم يتوصل إليه الفكر الاقتصادي

الحديث إلا في القرن الأخير.. حيث لم يبدأ مفهوم الإنتاج كعملية لإيجاد المنافع إلا على يد ساي"(5).

2.1- أهداف الإنتاج عند ابن خلدون

أ- إيجاد المنافع

يهدف الإنتاج في نظر ابن خلدون إلى إيجاد المنافع حيث يقول في مفهومه للإنتاج: كأنه لما كان العيش (المتمثلة في إنتاج السلع والخدمات) هو الحياة لا يحصل إلا بهذه (ويقصد العملية الإنتاجية) جعلت موضعا له على طريق المبالغة .

لقد كان ابن خلدون واعيا بأن الإنتاج يهدف إلى إيجاد المنافع المتمثلة في السلع والخدمات اللازمة لسد وإشباع الحاجات البشرية المختلفة التي تضمن استمرار الحياة، وفي هذا الزمن البعيد القرن الرابع عشر لم يخلط مثل ما كان سائدا في الفكر اللاهوتي الكنسي بل بين أن الكون والطبيعة يعتبران مصدر المنافع، غير أن هذه المنافع غير جاهزة للاستهلاك البشري النهائي، فهي موجودة على شكل موارد ومصادر أولية، وحتى تتحول إلى منافع في شكل منتجات نهائية لابد من ممارسة هذه العملية المسماة إنتاجا.

وقد عبر ابن خلدون عن العملية الإنتاجية ومراحل إيجاد المنافع في قوله:" ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل له (إيجاد منفعته) إلا بكثير من الطحن والعجن والطبخ... وهب أنه يأكله حبا، فهو يحتاج في تحصيله (بلوغ منفعته) حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدرس..."(6).

ويتبيّن من هذا أن ابن خلدون قد أدرك بأن هدف الإنتاج هو إيجاد المنافع الكامنة في الطبيعة، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بتدخل الإنسان بفعله وحركته لتحويل الموارد من صورتها الأولية إلى سلع أكثر نفعا للإنسان.

وهذا التدخل الهادف يسمى بالعملية الإنتاجية في العرف الاقتصادي، وفي عملية إخراج منافع خشب الأشجار يقول ابن خلدون: "...فالخشبة مادة لها وتصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة، والصناعة المتكلفة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها"(7).

ب- زيادة النمو والتقدم الاقتصادي

كما يهدف الإنتاج في نظر ابن خلدون إلى زيادة العمران وازدهاره حيث أن المعاش هو ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله والرزق مرتبط بالعمران، أي التقدم والانتعاش الاقتصادي، فهو تابع له يزيد بزيادته ويقل بضعفه، لأن العمران بانتعاشه يؤدي إلى توفر الأعمال الإنسانية وكثرة ما تنتجه من حاجات وخدمات، ويؤدي ذلك إلى زيادة الاستهلاك الذي تكون نتيجة زيادته الإنتاج وهكذا يؤدي هذا الفعل إلى نمو كثير من الأعمال فيزداد طالبو المنتجات الإنسانية مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج السلع والخدمات اللازمة، وهكذا تترابط حلقات الحركة الاقتصادية، وتؤدي كل حلقة إلى حلقة

جديدة إلى أن يحدث النمو الاقتصادي وتظهر بوادر التقدم والرقي.

فزيادة الاستهلاك تؤدي إلى زيادة الإنتاج، وزيادة الإنتاج يؤدي إلى زيادة الأعمال وكثرتها وتنوعها وظهور الصنائع وجودتها، وهكذا يؤدي إلى زيادة الحاجات الإنسانية وتنوعها وكثرة طالبي المنتجات الجديدة وهكذا تتكامل عوامل النمو الاقتصادي ويتحقق هدف الإنتاج.

ولقد أدرك ابن خلدون هذا الترابط بين العمران والرفاهية والإنتاج والتشغيل، ولا شك أن هذا التحليل يلتقي مع أحدث النظريات الاقتصادية المعاصرة.

يقول ابن خلدون: "واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب، ألا ترى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية، وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد رفاهية"(8).

إن هذا المفهوم الخلدوني نجده في كثير من النظريات المعاصرة التي تشجع الترف وزيادة الاستهلاك، كوسيلة فعالة لزيادة التشغيل والقضاء على البطالة، فالولايات المتحدة الأمريكية تأخذ بهذه الفكرة، وتشجع الاستهلاك لكي يؤدي إلى زيادة الإنتاج الذي يؤدي إلى نمو حركة الاقتصاد وهذه الزيادة تؤدي إلى زيادة التشغيل مما يؤدي إلى النمو والازدهار(9).

3.1- أصناف الإنتاج عند ابن خلدون

يقسم ابن خلدون الإنتاج إلى أصناف تكاد تشمل أهم ما يمكن إنتاجه، لا سيما في العصر الذي عاش فيه ابن خلدون ويمكن ذكر أهم هذه الأصناف باختصار فيما يلي:

أ- انتزاعه من الغير بالاقتدار

يقول ابن خلدون: "إن تحصيل الرزق وكسبه إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف يسمى مغرماوجباية"(10).

يتطرق ابن خلدون في بداية أصناف الإنتاج إلى ذلك الصنف الذي يؤخذ من الغير أي المنتجين الأصليين عن طريق القدرة والغلبة المتمثلة في الملك، ويؤخذ هذا النوع في شكل الغرامات وجباية، ويلاحظ أن ابن خلدون استعمل مصطلح انتزاعه، مما يدل على فعل أخذ الشيء بالقوة، قد يكون هذا الفعل من الأسباب التي جعلت ابن خلدون لا يعترف بالإمارة كوجه من وجوه النشاط الاقتصادي، إلا أنه اعتبر ما ينتزع بالقوة من الغير صنف من أصناف الإنتاج.

ب- الإنتاج الحيواني

إن آدم سميث في معرض تفسيره لقيمة الأشياء عن طريق العمل المبذول ضرب مثالا عن الزمن الذي يستغرقه في الحصول على حيوان معين "الوعل" وقارنه بالزمن الذي يستغرقه نفس الصياد لاصطياد حيوان آخر يستغرق نصف وقت الأول، فاستنتج أن قيمة الأول يساوي ضعف الثاني، أما ابن خلدون فيبيّن لنا نوع ذلك الجهد البشري المبذول للحصول على نوع من إنتاج اللحوم البرية التي تعتبر من ضروريات العيش،

بالإضافة إلى هذا أنواع الإنتاج التي يتحصل عليها الناس من مؤالفتهم للحيوانات الداجنة وقد ذكر ابن خلدون أمثلة في غاية الأهمية في العملية الإنتاجية مثل الحرير من الدودة الذي مثّل إنتاجه فيما بعد ونسيجه بداية الثورة الصناعية.

بالإضافة إلى تأكيد مفهوم الإنتاج عند ابن خلدون وهو استخراج المنافع وقد عبر عن هذا بقوله: "المنصرفة بين الناس في منافعهم".

يقول ابن خلدون: "وإما أن يكون من الحيوان الوحشي لافتراسه وأخذه برميه من البر والبحر، ومن الحيوان الداجن لاستخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن من الأنعام والحرير من الدودة والعسل من النحلة"(11).

ج- الإنتـاج الزراعي

يقول ابن خلدون: "أو يكون من النباتات في الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله فلحا"(12). ويتبيّن أن ابن خلدون يعتبر الزراعة صنف من أصناف الإنتاج سواء كانت زراعة الحبوب أو زراعة الأشجار بمختلف أصنافها أو الزراعات الفلاحية الأخرى، فإذا رأينا إلى تنكر بعض المفكرين والمذاهب الاقتصادية للزراعة كنشاط اقتصادي مثلما ساد في الفكر التجاري، يتبيّن بكل وضوح مدى أهمية أفكار ابن خلدون في هذا المجال وسبقه العلمي.

د- الإنتاج الصناعي والخدماتي

يقول ابن خلدون: "وأما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية إما في المواد المعينة وتسمى الصنائع، من كتابة ونجارة وخياطة وحياكة، أو تجسدت في أشكال غير معينة كالخدمات المختلفة التي تضيف منفعة على الأشياء التي تتعامل بها كسائر المهن والخدمات"(13).

إن المتتبع لتاريخ الفكر الاقتصادي والتناقضات الفكرية التي تخللته في مجال أوجه النشاط الاقتصادي وأوجه النشاط الإنتاجي وتلك المناقشات الحادة المختلفة حينا والمتفقة أحيانا أخرى ولا سيما عدم إنتاجية الخدمة التي ظلت حتى عهد الكلاسيك متفق على عدم إنتاجيتها، فالعالم أبو الاقتصادي آدم سميث تنكر لإنتاجية الخدمة رغم تصحيحه لكثير من الأخطاء الفكرية للتجاريين والطبيعيين.

أما ابن خلدون فيصرح قبل أربعة قرون من الفكر الكلاسيكي بإنتاجية الخدمة، بل أنه صنف بعض العمليات الإنتاجية المحسوبة على الخدمات في المجال الصناعي كقوله: "وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة..." فأعتبر فن الكتابة من الصنائع وهي كذلك في وقتنا المعاصر.

أما استعماله العبارة: "أو في مواد غير معينة وهي جميع الإمتهانات والتصرفات".

وقد جسم ابن خلدون هذا الأمر المتمثل في إنتاجية الخدمة بقوله وجميع الإمتهانات أي كل "مهنة"، وقوله "غير معينة" أي سواء كانت مرئية أو غير مرئية فكرية أو جسمانية، ملموسة أو غير ملموسة كانت نتيجة القيام بها ظهور منفعة معينة فإنها تعتبر إنتاجا.

وهكذا وبعد جميع التناقضات التي عرفتها الأفكار الاقتصادية على مدى أكثر من أربعة قرون ترجع إلى نفس قناعات ابن خلدون وتقر بإنتاجية الخدمة بما في ذلك المفكر آدم سميث وهذا يدل على علمية وموضوعية أفكار ابن خلدون في هذا المجال الذي يسجل فيه سبقا تاريخيا مميزا.

هـ- الإنتـاج التجـاري

يقول ابن خلدون: "وأما أن يكون الكسب إعدادها للأعواض إما بالتقلب بها في البلاد أو احتكارها أو ارتقاب حوالة الأسواق فيها يسمى هذا تجارة".

بيّن ابن خلدون أن التجارة وإن لم تقم بشكل مباشر على تحويل المادة أو التأليف بين عناصرها لاستخراج منافعها إلا أن الدور الفعال الذي تقوم به والمنافع التي تقدمها للناس عن طريق توفير ما يحتاجونه من سلع وخدمات عن طريق إعداد منتوجات للتبادل والأعواض، ثم عملية جلبها من البلاد التي يزيد الإنتاج فيها إلى تلك التي تزداد الحاجة إليها فإن هذه العملية تولد منفعة مكانية لم تكن موجودة، بالإضافة إلى خزنها وحفظها في وقت يفيض فيها إنتاجها وتنخفض أسعارها إلى وقت آخر يقل فيه إنتاجها وتزداد الحاجة إليها وهذه العملية تظهر منفعة زمانية.

إن قانون المنافع أو "المنفعة" لم يتفطن إليه الفكر الاقتصادي إلا في القرن التاسع عشر وهذا ما يضيف لابن خلدون ميزة فكرية سابقة لعصره متينة ومبرهنة على أهمية علمية فكره الاقتصادي.

2 ـ أوجه النشاط الاقتصادي ومراحل تطوره عند "ابن خلدون"

إن أهم المناقشات التي دارت حول أوجه النشاط الاقتصادي كانت منصبـة على أي الأنشطة يعتبر منتجا، وأيها غير منتج، وكان مجال هذه المناقشات هي القطاعات الرئيسية في الاقتصاد، الزراعة والتجارة والصناعة والخدمات، وإذا كان الفكر التجاري قد اعتبر التجارة هي الوجه الرئيسي للنشاط الاقتصادي وما عداها ثانوي أو عقيم، وإذا كان الفكر الطبيعي قد اعتبر الزراعة هي النشاط الرئيسي وما عداها فهو عقيم لا تضيف أي شيء لثروة البلاد، أما الفكر الكلاسيكي والذي عارض الأفكار السابقة واعتبر كل من القطاع الزراعي والصناعي والتجارة أوجه للنشاط الاقتصادي فإنه بقي متنكرا لإنتاجية قطاع الخدمات إلى حين.

إذا كان هذا هو حال أوجه النشاط الاقتصادي في الفكر الاقتصادي المعاصر، فكيف تناول ابن خلدون هذا الجانب الحساس من الفكر الاقتصادي قبل أربعة قرون من ذلك، وهذا ما نتناوله في الفروع الآتية:

1.2- النشاط الزراعي عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون: "..أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات (على أوجه النشاطات الأخرى)، إذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم ولهذا

تنسب في الخليقة إلى آدم أبي البشر، وأنه معلمها والقائم عليها إشارة إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة"(14).

وفي هذه العبارة يؤكد ابن خلدون بأن الزراعة هي أوجه من وجوه النشاط الاقتصادي، وأن مراحل تطورها تبدأ مع بداية البشرية إذ تنسب إلى أبي البشرية آدم عليه السلام.

ويمكن القول أن مفهوم ابن خلدون للنشاط الزراعي قد اشتمل على أنواع المزروعات بما فيها الأشجار المثمرة وغيرها وذلك بإعداده والقيام عليه لاستخراج ثماره وفوائده المختلفة، بالإضافة إلى هذا فقد تطرق ابن خلدون إلى تربية الحيوانات وإدجانها، وتربية النحل واستخراج عسله، وكذلك الصيد بجميع أنواعه، وهذا المفهوم الواسع للنشاط الزراعي قد يكون نفسه المتعارف عليه في العصر الحديث.

وابن خلدون محقا في قوله بأن الزراعة هي بسيطة فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علم، وهذا بالنظر إلى عصره الذي عاش فيه، فلم يكن الزارع والصياد ولا مربي الدواجن يحتاج إلى خريج المعاهد الزراعية، بل كانت الخبرة الميدانية والتراكم المعرفي المتوارث في الميدان الزراعي هو السائد في هذا المجال، وهذه الخبرة المعرفية هي التي تطورت وشكلت علم الزراعة الحديث، بالإضافة إلى هذا فإن العلم في الزراعة كان نسبي مقارنة مع الصناعة والتجارة التي لا تقوم إلا بقدر كبير من العلم والخبرة.

إن ابن خلدون في معرض فكره الزراعي أشار بأن الزراعة من انتحال أهل البدو، أما أهل الحضر والترف فهم أبعد عنها، وعادة ما يكون المستوى المعيشي للقائمين على الزراعة أقل من غيرهم، ويقول ابن خلدون بأنهم يختصون بالمذلة لما هنالك من تحيزات مالية ضدهم من فرض الضرائب والمكوس والمدارات، وتبعه من إهمال حكومي في الإنفاق عليهم، بالإضافة إلى تبعيتهم إلى الصناع والتجار من أهل المدن(15).

وهكذا يتضح بكل موضوعية وعلمية أن ابن خلدون قد أعطى النشاط الزراعي تحليلا اقتصاديا علميا معتبره وجها من وجوه النشاط الاقتصادي.

2.2- النشاط التجاري عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون: "وأما التجارة وإن كانت طبيعية في الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هي تحليلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع، لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة، لذلك أباح الشرع فيها المكاسبة لما أنه من باب المقامرة إلا أنه ليس أخذ لمال الغير مجانا فلهذا اختص بالمشروعية"(16).

ويتبيّن من هذا المفهوم أن ابن خلدون اعتبر التجارة من الأوجه الطبيعية للنشاط الاقتصادي، وبالرغم من أنه يعتبرها كذلك إلا أنه يتبيّن بأنها ليس فيها إضافة بالنسبة للإنتاج المادي إذ هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين، قيمة الشراء وقيمة البيع، وهي طبيعية لأنها تأخذ بأسلوب المخاطرة في الحصول على الربح، وبذلك تخرج من إطار أكل أموال الناس بالباطل، وهكذا يقرر ابن خلدون في هذه الحقبة من

الزمن بأن التجارة نشاط إنتاجي طبيعي تهدف إلى تنمية المال وزيادته وتساعد على تحريك وتنمية كل من القطاع الزراعي والصناعي إذ هي الوسيلة لتصريف منتجاتهما.

هذا في الوقت الذي لم تستقر فيه الأفكار الاقتصادية على تصنيف للنشاط التجاري هل هو نشاط طبيعي منتج أو هو غير ذلك، وهذا منذ زمن القديس توماس لكويني رائد الفكر الاقتصادي في العصور الوسطى والذي ذهب إلى اعتبار التجارة نشاط مذموم وهي شر لا بد منه، واعتبر كسب التجارة مال غير مرغوب فيه، ولذلك نادى بالثمن العادل في التجارة، أما التجاريون فقد كانوا نقيضا لفكر العصور الوسطى واعتبروا التجارة هي أساس الأنشطة الاقتصادية وغيرها لا يضيف شيئا لثروة البلاد إلا في مساعدة القطاع التجاري.

وقد اعتبر الفيزوقراط أو الفكر الطبيعي التجارة نشاط عقيم لا تضيف شيئا لثروة البلاد، وبقي الأمر هكذا متناقضا إلى أن جاء آدم سميث ورواد المدرسة الكلاسيكية ليثبتوا أن القطاع التجاري هو قطاع منتج ويؤكدوا بذلك ما أقره ابن خلدون قبلهم بأربعة قرون.

إن ابن خلدون لم يتوقف عند إثبات بأن النشاط التجاري هو نشاط طبيعي منتج وإنما أعطى مفهوما للتجارة من حيث قيامها وازدهارها وكيفية الحصول على الربح المعقول منها كما تعرض إلى الأضرار التي يمكن أن تحدث عن أساليب المبادلة، وفي سابقه يذهب إلى أبعد من ذلك، ليحلل السلوك الإنساني في المجال التجاري فيبيّن أخلاق التجار وسلوكهم في هذا المجال، وكأنه عالم نفساني.

يقول ابن خلدون: "أعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء، أيما كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحا. فالمحاول لذلك الربح إما أن يختزن السلعة ويتحيّن بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه، وإما أن ينقله إلى بلد تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه"(17).

وتبيّن بأن الربح عند ابن خلدون هو ذلك الجزء النامي بين قيمتي الشراء بالرخص والبيع بالغلاء.

أما طرق تعظيم الربح فيذكر منها ابن خلدون في هذه العبارة أهمها وهي:

أ- التخزين

وهو توفير شروط حفظ السلع بجميع خصائصها من زمان تكثر السلع وتزداد إلى زمن آخر تقل فيه وتنقص، فيزداد الطلب عليها وترتفع أثمانها فيعظم ربح التجارة وهو بهذا يكون رائد الكشف عن المنفعة الزمانية للسلع الإنتاجية.

إن التخزين في عصرنا الحالي يعتبر من أهم الأساليب لتعظيم الأرباح، فالشركات العظمى وحتى الصغيرة منها أصبحت تجعل من التخزين عنصرا أساسيا يدخل في دراسة جدوى أي مشروع استثماري، وهذا يدل على بعد زمان ومكان ابن خلدون على نظرته العلمية للمواضيع ذات الأهمية الاقتصادية.

ب- النقل

وهو نقل السلع من مكان إنتاجها إلى مكان تكون فيه نادرة وقليلة حيث ينفق فيه تلك السلع المنقولة أكثر من بلده الأصلي الذي اشتراها فيه وبذلك يعظم ربحه.
والنقل من أهم وسائل ترويج السلع وتصريفها، وقد اهتم الفكر الاقتصادي الحديث باقتصاديات النقل، حيث أصبح النقل رقما مميزا في تعظيم الأرباح، وذلك عن طريق تعظيم منافع السلع عند تحريكها من مكان إلى آخر حسب ظروف الطلب الفعال.

إن هذه النظرة الاقتصادية الثاقبة تجعل ابن خلدون مرة أخرى يكتشف من المنافع ما سمي "بالمنفعة المكانية" وهذه المنافع أو نظرية المنفعة بشكل عام لم ينتبه إليها الفكر الاقتصادي إلا في القرون المتأخرة .

أما فيما يخص سلوك التجار فيقول أنه لابد للتجارة من خلق المكايسة، وقد فسرها بأن: "خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة ذلك أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح، ولابد في ذلك من المكايسة والمماحكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج، وهي عوارض هذه الحرفة، وهذه الأوصاف تغض من الذكاء والمروءة وتخدج فيها لأن الأفعال لابد من عود أثارها على النفس"(18). ولم يعمم ابن خلدون هذا حيث استثنى بعضهم قائلا: "من سلم من هذه الأخلاق يتحاماها لشرف نفسه وكرم خلاله إلا أنه نادر بين الوجود"(19).

3.2- النشاط الصناعي عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون: "وأما الصنائع فهي ثانيتها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية، تصرف فيها الأفكار والأنظار ولهذا لا توجد غالبا إلا في أهل الحضر الذي هو متأخر عن البدو وثان عنه، ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثاني للخليفة فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى"(20).

ويبيّن ابن خلدون مفهوم الصناعة، ومراحل تواجدها فهي تلك العملية الإنتاجية التي تتطلب علما كبيرا وفنا دقيقا حتى يتمكن ممتهنها بالتأليف بين مجموعة من عناصر الطبيعة وموادها الأولية ليشكل شيئا لم يكن موجودا بصورته الحالية يضيف منفعة لم تكن موجودة، وهذا الأمر متجسد في كل ما صنعه الإنسان وما سيصنعه مثل السفينة والسيارة والطائرة وغيرها من عجائب الصنائع الذي أبدع فيها الفكر البشري.

أما مرحلة ظهور الصناعات فيرجعها ابن خلدون إلى الأب الثاني للبشرية إدريس عليه السلام، وهو بذلك بيّن بأن الصناعات متجذرة في عمق هذا الزمن، وهي ليست وليدة الحضارة الغربية أو الثورة الصناعية.

إن ابن خلدون يبيّن أن الصناعة تعتبر من أهم أوجه النشاط الاقتصادي، وهو في عصره هذا المنعت بعصر الظلام في أوربا وعصر الانحطاط في الشرق يسمو فوق هذه النعوت ليبين بأن الصناعة هي الوجه الرئيسي للنشاط الاقتصادي، وأن الحضارة والتقدم تبنى من ازدهارها وكثرتها، متفوقا على الأفكار التي سادت بعده عند التجاريين الذين اعتبروا الصناعة قطاع ثانوي خادم للتجارة، والطبيعيين الذين اعتبروها قطاع عقيم، وكأني بابن خلدون قد أوحى للكلاسيك والنيوكلاسيك بأهمية الصناعة كشرط

للحضارة والتقدم والرقي فانتهجوا هذا المذهب، حيث كانت بداية الحضارة الأوربية هي ظهور ما يسمى بالثورة الصناعية.

يقول ابن خلدون: "ثم أن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات، وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها، بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة"(21).

هاهو ابن خلدون يصل إلى أن استجادة التصنيع والتبحر به يؤدي إلى وجود التقدم الاقتصادي الموسوم بالترف والثروة.

كما يبيّن بأن التقدم الصناعي يظهر صناعات جديدة لم تكن موجودة، وأن الصناعة تتبوأ مكانة عالية من حيث أنها تشكل الوجه الرئيسي للنشاط الاقتصادي.

يقول ابن خلدون: "وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكماليات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما يدعو إليه عوائد الترف وأحواله.. وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال"(22).

هكذا يتوضح بأن الصناعة عند ابن خلدون هي وجه طبيعي من أوجه النشاط الاقتصادي، بل هي من أهم وجوهه، حيث يمكن القول بأنه اكتشف وجود روابط وعلاقات بالغة القوة بين تقدم وارتقاء الصناعة وتقدم العمران(23)، ووصل في ذلك إلى صياغة تعميمات وقوانين من أبرزها:

- "أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته".
- "أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمده".
- أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبوها".
- أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع".

إن كل باحث موضوعي مطلع على التقدم الفكري الإنساني يعترف لابن خلدون بعلمية وموضوعية هذه القوانين ويشهد له بالأسبقية التاريخية في إدراكها وصياغتها.

4.2- النشاط الاقتصادي غير الطبيعي عند ابن خلدون

لقد تطرق ابن خلدون إلى جملة من الأعمال اعتقد أن الكثير منها لا يضيف منافع كأعمال التنجيم والسحر والشعوذة، وما يسمى في زمانه بأعمال الكيمياء، وأعمال الدفائن والكنوز، كما أنه لم يدخل الإمارة ضمن أوجه النشاط الاقتصادي بالرغم أنه يعتبرها ضرورية باعتبارها تقيم العدل بين الناس وتضرب على يد الذين ينتزعون أموال الناس بالقوة والجبروت، ونحاول أن نتطرق لهذه الأوجه غير الطبيعية عند ابن خلدون في النقاط التالية:

أ- الإمارة ليست مذهبا طبيعيا للمعاش

يقول ابن خلدون: "...فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها، وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها في الفصل الثاني"(24).

إن المتصفح لهذه المقولة يعتقد بأن هناك تناقض في فكر ابن خلدون فيما يخص الإمارة كيف يعتبرها ضرورية لقيام النشاط الاقتصادي واستقرار الأمن ثم لا يعترف بها كقطاع منتج.

ولقد لفتت انتباهي العبارة الأخيرة من هذه الفقرة والقائلة: "وقد تقدم شيء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها في الفصل الثاني".

فلما رجعت إلى هذا وتفحصته وجدت بأنه يتكلم عن ما يصاحب أعمال الجبايات السلطانية من مظالم واعتداءات تذهب بآمال المنتجين وتحط من عزائمهم فينصرفون شيئا فشيئا عن العملية الإنتاجية وتكون النتيجة في الأخير خراب الجهاز الإنتاجي.

يقول ابن خلدون: "فإذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقبت ملوكها.. وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية إلى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف (أنواع من الضرائب) والوزائع حينئذ، واكره الفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس... حتى تثقل المغارم على الرعايا وتهضمهم وتصير عادة مفروضة لأن تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها، إنما ثبت على الرعايا في الاعتمار لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع إذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار جملة.."(25).

هذا جزء من تحليل طويل لابن خلدون حول هذه المسألة، ولعل هذا التحليل والتوضيح يؤدي إلى فهم لماذا أخرج ابن خلدون عمل الإمارة من النشاط الاقتصادي.

إن المتتبع لتضخم الجهاز الإداري الحكومي في عصرنا الحالي والمطلع على ما تقدمه تلك الأجهزة من جهود حقيقية للمجتمعات مقارنة مع ما ينفق عليها من أموال الأمة لوافق ابن خلدون في نظرته دون إحراج.

ب- أعمال التنجيم والسحر والشعوذة:

لا يعترف ابن خلدون بأعمال التنجيم، أي استطلاع الغيب من النجوم وكذلك أعمال السحرة والمشعوذين، ويعتبر ذلك وجه غير طبيعي للإنتاج لأن ما يحصل عليه هؤلاء هو عبارة انتزاع الأموال من الناس عن طريق الحيل والخبث والكذب وهي لا تضيف شيئا لثروة الأمة وتدخل في إطار أكل أموال الناس بالباطل.

يقول ابن خلدون: "فقد بان لك بطلان الصناعة عن طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك عن طريق ا لعقل مع مالها من مضار في العمران البشري"(26).

جـ- أعمال الدفائن والكنوز والكيمياء

هذه الأعمال اعتبرها ابن خلدون أنشطة غير طبيعية لأنها لا تعتمد على الجهد البشري القادر على الإضافة المنفعية وإنما ينتحلها أناس يعتقدون بأن لهم معرفة بما في باطن الأرض من كنوز الأولين، ويشيعون بأن السابقين لهم قد خبأوا ثرواتهم من ذهب وفضة في باطن الأرض وفي أماكن يمكن معرفتها عن طريق التنجيم والطلاسم.

يقول ابن خلدون: "أعلم أن الكنوز وإن تحقق في بعض الحالات، فهي حالات نادرة، وعلى وجه الإنفاق لا وجه القصد، وليس ذلك بأمر تعم به البلوى حتى يدخر الناس أموالهم تحت الأرض ويختمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث"(27).

أما أعمال الكيمياء التحليلية فلا يعتبرها نشاطا إنتاجيا التي يقوم بها بعض الناس عن طريق تحويل المعادن غير الثمينة بطليها بماء الفضة والذهب، وبيعها على أساس أنها ذهب وفضة، فهذه العملية يعتبرها ابن خلدون غش وتدليس وهي مضرة بالنشاط الاقتصادي حيث تضعف من القدرة الاقتصادية للأفراد وتضر بالجهاز الإنتاجي، وقد يكون مثلها مثل تزوير الأوراق النقدية في عصرنا الحالي.

يقول ابن خلدون: "من طلب الكيمياء طلبا ضيع ماله وعمله، ويقال لهذا التدبير الصناعي، التدبير العقيم، لأن نيله إن كان صحيحا فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع كالمشي على الماء"(28).

وهكذا يرتقي فكر ابن خلدون في أوجه النشاط الاقتصادي ارتقاء علميا يضع صاحبه في مقدمة من أفاض في هذا المجال من رواد الفكر الاقتصادي في العصر الحديث.

3 ـ عوامل الإنتاج عند ابن خلدون

إذا كانت أوجه النشاط الاقتصادي قد عرفت اختلاف وجهات النظر في الفكر الاقتصادي، فكذلك عناصر الإنتاج، فقد قامت حولها مناقشات فكرية من حيث عددها هل هي ثلاثة أم اثنان أم أربعة كما سبق وأن رأينا في الفكر الاقتصادي المعاصر، ونحاول في هذا المطلب أن نعرف كيف عالج ابن خلدون هذه المسألة من حيث مفهوم عناصر الإنتاج الثلاثة التي أقرها وذلك في الفروع الآتية:

1.3- العمل الإنساني

لقد كان للعمل عند ابن خلدون مكانة خاصة حيث ركز بشكل منقطع النظير عن دوره في حياة الإنسان، وهو لم يعتبره ضروريا للكسب وانتاج الحاجات البشرية فحسب، وانما تعدى اهتمامه به ليجعله وسيلة تثبت ذات الإنسان ورجوليته الطبيعية، حيث مقت قضاء الحاجات عن طريق استخدام الآخرين، حيث يقول ابن خلدون في هذا الصدد: "أعلم أن السلطان لابد له من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الإمارة والملك... وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفعون عن مباشرة حاجاته ويكون عاجزا عنها لما ربى عليه من خلق التنعم والترف، فيتخذ من يتولى ذلك بقطعه عليه أجرا من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان"(29).

وهكذا يضيف ابن خلدون أخلاقية جديدة للعمل بحيث لا تجعله ضرورة فقط من أجل العيش وإنما أيضا حاجة الإنسان لكي يثبت ذاته وتكتمل رجوليته الطبيعية.

لقد جعل ابن خلدون العمل العنصر الأساسي لعوامل الإنتاج فهو المصدر الرئيسي بالنسبة للثروة بجميع أشكالها وأنواعها، حيث يكاد يجزم بأن لا إنتاج ولا ثروة إلا بتدخل العمل الانساني حتى المياه في منابعها والثمار في أشجارها والحليب في ضروع الحيوانات لا يكون نافعا إلا بتدخل العمل الإنساني.

يقول ابن خلدون: "حتى أن الأنهار والينابيع وضروع الأنعام تنضب وتجف ما لم يكن من انباط وامتراء الذي هو بالعمل البشري"(30).

وقد نفى ابن خلدون تلك المقولة التي تجعل البلدان الأكثر غنى هي التي تملك معادن الذهب والفضة، وإنما الثروة والغنى في نظره هو قيمة الأعمال الإنسانية التي ينجزها أهلها، وبعد تناقضات كبيرة وكثيرة وبعد أربعة قرون يرجع الفكر الكلاسيكي وعلى يد آدم سميث ليثبت هذه الفكرة العظيمة لابن خلدون حيث يقول آدم سميث: "العمل السنوي لكل أمة هو الرصيد أو المصدر الذي يزودها أساسا بكل متطلباتها الاستهلاكية السنوية"(31).

إن عنصر العمل قد استعمله ابن خلدون بمعناه الاقتصادي المتداول في الفكر الاقتصادي، وجعل له من الأهمية ما فاق العنصرين الآخرين الطبيعة ورأس المال، حيث جعله المصدر الأساسي للثروة وتراكمها، ولأول مرة يبرز ابن خلدون العلاقة الطردية بين زيادة الثروة والتقدم الاقتصادي وبين العمل الإنساني، إذ يعتبر ابن خلدون أنه كلما زاد الإنسان من عمله، كلما أدى ذلك إلى زيادة إنتاجه، كلما انعكس ذلك على ثراء الإنسان وسعادته وبرهن ذلك اقتصاديا بتفنيد ما كان سائدا بأن الغنى والثروة إنما مصدرهما معادن الذهب والفضة في دول معينة.

يقول ابن خلدون: "أعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد في التحصيل فلابد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه، قال تعالى: فابتغوا عند الله الرزق، والسعي إليه إنما يكون بأقدار الله تعالى وإلهامه فالكل من عند الله، فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول لأنه إن كان عملا بذاته مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلابد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع"(32).

إن المتفحص في هذه العبارة يجد الأهمية الاقتصادية التي أولاها ابن خلدون للعمل كعنصر للإنتاج، حيث يجزم بأن العمل الإنساني يدخل في كل مراحل العملية الإنتاجية، فيقول: "فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول"(33).

هذا من جهة ومن جهة أخرى ينفي حصول المنافع بدون العمل الإنساني، وبذلك سد نافذة كثيرا ما يفتحها ويتعلق بآمالها المتقاعسون عن العمل فيقول: "...فلابد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع"(33).

إذن المنفعة التي هي المكون الرئيسي للقيمة في فكر ابن خلدون لا تقع إلا بالعمل الإنساني، ولهذا يدعم ابن خلدون علمية نظرية القيمة في العمل- النظرية العلمية التي تعتبر الأكثر قبولا والتي تطورت على يد الكلاسيك: آدم سميث وليام بيتي ودافيد ريكاردو، ثم أصبحت تتداول عند الماركسيين بمفهومها الاشتراكي الماركسي.

إن مساهمة ابن خلدون في صياغة قيمة العمل تبرز بشكل عام وخاص من بين أفكاره الاقتصادية لتصبح أكثرها تفوقا وأهمية، وأبرزها مكانة في تاريخ الأفكار الاقتصادية، وهو يعبر في موضع آخر عن أهمية العمل كعنصر للإنتاج فيقول: "إنما المكاسب هي قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها (منافعها) فكثرت مكاسبهم" أي زاد الإنتاج بزيادة العمل البشري.

وقد فرّق ابن خلدون بين أنواع الأعمال كالعمل الظاهر والعمل المستتر في هذا الوقت البعيد حيث يقول: "..إن كان عملا بذاته مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه".

وهكذا اكتشف ابن خلدون أنواع العمل وكل من جاء من بعده إنما غيّر في المصطلحات والتسميات، كالعمل الحي والعمل الميت، والعمل الحاضر والعمل الماضي والعمل الظاهر والعمل المستتر.

إن هذه التسميات على اختلافها لم تخرج عن المفهوم الذي قدمه ابن خلدون في مجال أنواع الأعمال.

2.3- الطبيعة

يطلق لفظ الطبيعة على الموارد الطبيعية التي لم يكن للإنسان دخل في إنتاجها، ويسميها البعض الأرض، وهي التي سخرها الله للإنسان قبل وجوده، وعرفها الإنسان منذ وجوده عليها، فأمدته بضروريات الحياة، وزودته بما يحتاجه فكانت المصدر الرئيسي للإنتاج.

ومن المعلوم أن التجاريين قد حيدوا الأرض كمصدر لانتاج الثروة، بينما اتجه الطبيعيون إلى الطبيعة للبحث عن قوانين تحكم العملية الإنتاجية فاهتدوا إلى أن الطبيعة هي المنتج الوحيد للثروة، والعمل في الأرض هو العمل المنتج الوحيد الذي يخلق الثروة والقيمة، أما القطاعات الأخرى فهي قطاعات عقيمة، ومداخيلها هي أجزاء من العمل الزراعي.

أما ابن خلدون فإنه يعتبر الطبيعة عنصرا منتجا يساهم بشكل كبير في العملية الإنتاجية، ويستحق أن يخصص له عائدا من العملية الإنتاجية، وعادة ما يذهب الاقتصاديون إلى التعبير عن الطبيعة بالأرض بالرغم من أن الطبيعة أوسع من الأرض التي تعتبر جزءا صغيرا منها.

ولقد تفطن ابن خلدون إلى هذا فتكلم عن الأرض كعنصر للإنتاج واكتشف قوانين الريع بأنواعه، بشكل علمي دقيق، كما تكلم عن الهواء وأثره على الإنسان وعلى العملية الإنتاجية، وتكلم عن المناخ وتأثيراته الاقتصادية على العملية الإنتاجية.

إن دراسة الموارد الطبيعية وأهمية مناقشتها لا تكمن في سرد عددها، ولا في تعريف مواردها كالماء والهواء والجبال والبحار والتلال وما بين السماء والأرض، ما عرفه هذا الإنسان وما سيعرفه من كنوز وأسرار هذه الطبيعة، وإنما تكمن في الأبعاد الاقتصادية كهذا العنصر الإنتاجي وقد تطرق ابن خلدون إلى جملة من الأبعاد نذكرها مختصرة فيما يلي:

أ- منشأ الموارد الطبيعية

إن معظم المفكرين والمدارس الاقتصادية لم يجب بكل وضوح عن منشأ الموارد الطبيعية التي تعتبر أساس العملية الإنتاجية، وقد يرجعون ذلك إلى الطبيعة مرة، وإلى الصدفة مرة أخرى(34) وكأن الطبيعة صنعت نفسها، أو أن الصدفة تخلق الأشياء بهذا النسق العجيب الذي يسير حسب قوانين علمية محكمة لا تزيغ ولا تحيد، غير أن ابن خلدون ذكر هذا الأمر بكل صراحة واطمئنان علمي قائلا: ".. والله سبحانه وتعالى خلق جميع ما في هذا العالم للإنسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال تعالى: "خلق لكم ما في السموات والأرض جميعا منه"، "وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار"، "ويد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف"(35).

ب- ضرورة الجهد البشري لاستخدام منافع الطبيعة

إن الموارد الطبيعية قد خلقها الله في شكلها الأولي وأودعها الطبيعة بأشكال وأنواع وحالات مختلفة، وهذه الموارد بشكلها الأولي تبقى عديمة المنفعة ما لم يتدخل فيها العمل الإنساني فيشكله ويناسق بين عناصره عن طريق التجربة واعادتها، واكتشاف القوانين واختراع الوسائل لزيادة الاستفادة من هذه الموارد.

وقد أدرك ابن خلدون ذلك فبيّن بأن الموارد الطبيعية لا تكون نافعة إلا بتدخل العمل البشري.

يقول ابن خلدون: "...وقد يكون له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله إلا أنها إنما تكون معينة "ولابد من سعيه معها..."(36).

وقد أكد آدم سميث فيما بعد وبتعبير يقارب تعبير ابن خلدون قائلا: "إن الطبيعة في الزراعة تشارك أيضا في خلق القيمة وتعمل مع الإنسان، ورغم أن عملها لا يتطلب أية نفقات، إلا أن منتجاتها تمتلك قيمة تماما مثلما تمتلك منتجات أكثر العمال أجرا" (37).

3.3- رأس المـال

إن أهمية رأس المال وعصرنا الحاضر لم تكن أقل مما كانت عليه في عصر ابن خلدون وإن اختلفت أنواع وأشكال رأس المال نتيجة التقدم الطبيعي للفكر الإنساني، حيث لا يكاد أي فرد في أي عمل اقتصادي سواء في العصر الحاضر أو الماضي لغير رأس المال، ورغم هذه الأهمية إلا أن رأس المال مأخوذ مما هو مسخر في الطبيعة للإنسان، ولهذا فإن رأس المال لا يمكن وجوده دون وجود الطبيعة والعمل البشري.

ولقد عرف ابن خلدون وهو ابن العصور الوسطى هذه الأهمية وأعتبر رأس المال من عناصر الإنتاج الضرورية في أي عملية إنتاجية وقد تفطن إلى المساعدة الكبرى وإلى زيادة الإنتاجية عند استعمال رأس المال، كما تعرف وعرف بأن رأس المال في أصله هو نتيجة العمل البشري بأعمال الفكر والساعد في إنتاج ما يخفف العناء على الإنسان ويعظم أعماله ويضاعف إنتاجيته.

فيقول: "وكذلك في جر الأثقال بالهندام فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة تعجز قدرة الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط فيتحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من أثقاب مقدرة على نسب هندسية يصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا، فيتم المراد من ذلك بغير كلفة(38).

وهكذا يبيّن ابن خلدون أهمية رأس المال كعنصر من عناصر الإنتاج، إذ لولاه لما استطاع الإنسان الوصول إلى هذه المنتجات الكثيرة، والفعالة والتي أصبحت حياة الإنسان مرتبطة بها ارتباطا كبيرا، حيث لا توجد صناعة من الصناعات ولا حرفة من الحرف إلا ويحتاج المشتغل بها إلى نوع من رأس المال لإنجاز أعماله، فالنجار محتاج إلى الخشب، وحصوله على هدفه من هذا الخشب لا يتم إلا بالآلات الخاصة بالنجارة، والخياط لا يستغني عن إبرته وخيطه ومقصه، والصياد لابد له من رأس مال مساعد للحصول على صيده في البر أو في البحر.

لقد فند ابن خلدون مقالة كانت سائدة في عصره ومازال البعض يعتقد بها في عصرنا الحاضر، وهي أن هذه البنايات الضخمة كالأهرام والقصور الضخمة، وكل عجيب تركه الأقدمون، تعود إلى الأجسام الهائلة والقوة الغريبة التي كان يتمتع بها قوم الجاهلية، والأمر عند ابن خلدون ليس كذلك، وإنما هذه العجائب التي بناها الإنسان هي بفضل ما اكتشفه من أنواع رأس المال.

يقول ابن خلدون: "... وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر، وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التي يحسب أنها من بناء الجاهلية وأن أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني، وليس كذلك، وإنما تم لهم بالحيل الهندسية"(39).

إن الفيزوقراط وخصوصا "تيرجو" رغم تواجدهم في العصر الحديث إلا أن كلامهم عن رأس المال كان محصورا في المال الذي كان يسلفه الأفراد للغير بفائدة ولكن هذا المال، يعتبر بهذا المفهوم جزءا بسيطا منه، وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء آدم سميث فكان أول من تكلم بطريقة واضحة عن رأس المال حيث قال: "عندما يملك الإنسان كمية وافرة من المال لسد حاجاته شهورا أو سنين فإنه يستثمر أكثره للحصول على إيراد ويحتفظ بالباقي لقضاء لوازمه حتى يحصل إيراد الجزء الأكبر، وبذلك ينقسم ماله إلى قسمين: الأول يعطيه إيرادا وهو رأس المال ويقوم الثاني بنفقات معاشه (40) وهو مخصص للاستهلاك.

وهكذا يتضح السبق الفكري والتاريخي لابن خلدون في هذا المجال فهو يعتبر أول من عرف رأس المال العيني الذي تكلمنا عنه والذي يدعمه بهذه العبارة التي لا تدع مجالا للشك بهذه المعرفة المسبقة يقول ابن خلدون: ".. وجعل للإنسان عوضا عن ذلك كله كالفكر واليد، فاليد مهيأة للصنائع لخدمة الفكر، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح والسيوف وغير ذلك (41).

أما عن الشائع من رأس المال النقدي فقد أولى ابن خلدون أهمية كبيرة لهذا النوع من رأس المال، وتناوله في أكثر من موقع تارة يكون فيه حاثا عن اقتنائه وحسن إنفاقه،

وتارة أخرى يبيّن الأسس التي تعظم الأرباح، ثم يبيّن في حالات أخرى العوامل والأسباب التي تؤدي إلى فساد الربح، وفي سبق علمي فريد وسابق يبيّن ابن خلدون نفقة هذه الأموال وأثارها السلبية والإيجابية على الفرد والدولة والاقتصاد الوطني.

أما عن رأس المال النقدي المتداول في التجارة يقول فيه ابن خلدون: "فإذا أستديم الرخس في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فسد الربح... وفسدت رؤوس الأموال"(42).

ويتضح من هذه العبارة أن ابن خلدون قد فرق بين رأس المال العيني الذي سبق شرحه ورأس المال النقدي الذي يسميه صراحة برؤوس الأمـوال، وهذه التفرقة الظاهرة عند ابن خلدون لأنواع رأس المال التي عرفها الأدب الاقتصادي الحديث تعتبر إضافة علمية وسبق تاريخي في هذا المجال يحسب لابن خلدون .

ونلخص في النهاية إلى أن ابن خلدون قد تعرف على عناصر الإنتاج بتقسيمها الثلاثي، العمل والطبيعة ورأس المال، وأنه لم يذكرها مجرد ذكر لكنه حللها مستعملا أدوات التحليل الاقتصادي المتوفرة في عصره والمستمدة من فكره، وهي وإن كان عصرها يعود للقرن الرابع عشر الميلادي فهي لا تقل أهمية ولا تنقص علميا عما توصل إليه المفكرون المعاصرون.

الخـاتمة

بعد تعرضنا لنظرية الإنتاج عند ابن خلدون ، ومن خلال مقارنتها بأحدث الأفكار الاقتصادية تبيّن بكل موضوعية علمية بأن ابن خلدون قد أحاط بجميع جوانبها ، مما يجعله يتبوأ المكانة الأولى بين المفكرين الذين ساهموا في تطوير هذه النظرية والتحليل الاقتصادي المرتبط بها .

الهـوامش

1. المقدمة- عبد الرحمن ابن خلدون-تحقيق عبد الواحد وافي –الجزء 3- نهضة مصر- 1981- ص893
2. المقدمة- ص .365
3. حسين الرفاعي- الاقتصاد السياسي- دار الترقي- 1982- ص.55
4. المقدمة- نفس المرجع السابق- ص .386
5. جورج سول- المذاهب الاقتصادية- ترجمة راشد البراوي- مكتبة النهضة المصرية- 1965- ص.86
6. المقدمة- ص .365
7. المقدمة- ص .383
8. المقدمة –عبد الواحد وافي -مرجع سابق- ص .684
9. فاروق النبهان –الفكر الخلدوني- مؤسسة الرسالة-1998 -ص .213
10. المقدمة- مرجع سابق ص 684.
11. المقدمة- ص 380.
12. المقدمة- ص .394

13. المقدمة- ص .406
14. المقدمة- ، طبعة دار القلم –بيروت. ص .383
15. ابن خلدون، مؤسس علم الاقتصاد، دار معاذ للنشر والتوزيع، جامعة أم العرب، السعودية، 1993.
16. المقدمة-ط/ دار القلم بيروت/ ص .383
17. المقدمة- ط/ دار القلم بيروت/ ص .395
18. المقدمة- ط- دار القلم بيروت- ص .396
19. نفس المرجع السابق- ص .396
20. المقدمة- نفس المرجع السابق- ص.383
21. المقدمة- ط1- المكتبة التجارية الكبرى- القاهرة- ص.400
22. نفس المرجع السابق- ص.400
23. شوقي أحمد دينا- مرجع سابق- ص.46
24. المقدمة- ط1- دار الفكر- بيروت- ص.348
25. المقدمة- ط- دار الفكر بيروت- ص.280
26. المقدمة- ط.م.ت.ك- القاهرة- ص.522
27. المقدم- ط.م.ت- القاهرة- ص.387
28. نفس المرجع السابق- ص.530
29. المقدمة- ط- دار العلم بيروت- ص.383
30. المقدم- ط.م.ت- القاهرة- ص.387
31. نفس المرجع السابق- ص.530
32. المقدمة- ط- دار العلم بيروت- ص.383
33. المقدمة- نفس المرجع السابق- ص.38
34. أحمد شوقي دنيا- مرجع سابق، ص.37
35. المقدمة- طبعة- دار الفكر بيروت- ص.380
36. نفس المرجع السابق- ص.381
37. Adam Smith, La richesse des nations, G.S. Flammarion, 1992, p.174.
38. المقدمة- طبعة- المكتبة التجارية الكبرى- القاهرة- ص .344
39. المقدمة– نفس المرجع السابق- ص.409
40. ثروة الأمم- مرجع سابق- ص
41. المقدمة- نفس المرجع السابق- ص .42
42. المقدمة– نفس المرجع السابق- ص 398. □